

التأسيس الحداثي لقداسة العقلانية ودناسة الجنون-مقاربة ميشيل فوكو -.

The Modernist construction of sanctification of rationality and profanation of madness-Michel Foucault Approach-

عامر ايمان¹، الطاهر صافي²

Ameur imene¹، Safi tahar²

1-جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)، ameur.imene@univ-guelma.dz

2-جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)، t.safi@univ-skikda.dz

مخبر الفلسفة والدراسات الإنسانية والاجتماعية ومشكلات الاعلام والاتصال

تاريخ النشر: 2023/07/13

تاريخ القبول: 2023/04/10

تاريخ الاستلام: 2023/02/08

الملخص: تهدف هذه الدراسة الى توضيح رؤية ميشيل فوكو حول العقلانية الحداثية التي رفضت الآخر، بدعوى أنه مختلف عن العقل ويعيق وصوله نحو الحقيقة، وبيان موقفه حول الجنون من خلال حفره في الخلفية التاريخية التي بنيت عليها الحداثية، اذ وجد مظاهر اكراه شديدة وعزل وقهر كانت تمارس على المجنون عبر مختلف العصور الى أن أسس الطب الحديث في القرن التاسع عشر فكرة الطب العقلي لاحتواء المجانين في المصححة، الأمر الذي يراه ميشيل فوكو نوع جديد من العزل والتحكم السلطوي في حياة المجنون خاصة من طرف الطبيب الذي يستند على منجزات علم النفس الحداثية للإنسانية، ليخلص بذلك الى رفض عد الجنون مرض عقلي معتبره ظاهرة حضارية تساهم في خلق جانب جمالي في الحياة، تثبت الذات المنسية في خضم الحداثية نفسها من خلاله.

الكلمات المفتاحية: الجنون، الحداثية، العقلانية، الآخر، المهمش، الطب العقلي، مظاهر الاكراه.

Abstract:

This study aims to clarify Michel Foucault's vision of modernist rationalism, which rejected the other, because it is different from the mind and hinders its access to the truth, he see the isolation and oppression that were practiced on the crazy, until the foundations of modern medicine in the 19th century the idea of mental medicine to contain the crazy in the mental asylum, which he sees as a new type of isolation and authoritarian control in the life of the crazy, Especially by the doctor who relies on the achievements of inhuman modern psychology, in order to conclude that he rejected the consideration of madness as a mental illness, considering it a civilized phenomenon that contributes to the creation of an aesthetic aspect in life, through which the forgotten self proves itself in the midst of modernity.

Keywords: Madness, modernity, rationality, the other, the marginalized, psychiatry, manifestations of coercion.

1. مقدمة:

تعرف لحظة الحادثة على أنها انفتاح جديد نحو العالم، ذلك الذي غيبه ظلام العصور الوسطى طيلة قحب من الزمن بفضل مجهودات العلماء والفلاسفة والتضحيات المصاحبة لها، بل استطاع الانسان استعادة حريته وتفكيره المطلق وراح يمضي قدما في تجسيد مشروعه الحداثي القائم على تمجيد العقل والعقلانية والذاتية وغيرها، وأخذ تمجيد العقل منحى بارز لدى الحداثيون بداية بفيلسوف العقلانية رينيه ديكارت René Descartes 1596-1650 الذي نظر الى العقل نظرة شامخة وعمل على عقلنة جميع المعارف وفي المقابل نفي كل شيء يعيق وصول العقل الى المعارف اليقينية، كما سار على خطاه العديد من الفلاسفة الذين حددوا معيار المعرفة بصرامة المنطق وآليات العقل دون غيره وتهميش كل ما ارتبط باللاعقل، كما أن الواقع الاجتماعي الحديث برز بوقائع حداثية، اذ ساد آنذاك تمجيد العقل واستبعاد اللامعقل وبالتالي حظي العاقل بمكانة اجتماعية راقية عكس الفاقد للعقل أي المجنون الذي لم تكن له أية أهمية في مجتمعات تقدر العقلانية، والأمر لم يتوقف هنا فحسب بل كانت المعاملات التي تمارس على الفرد اللامجنون عبارة عن ممارسات خطيرة فكان يهش ويغذب ويعاقب والعديد من مظاهر الاكراه التي ارتبطت بمصيره البائس ولم تكن له اية حقوق لأنه ضد العقل هالتهم المقدسة.

ونتاجا لما توصلت ليه الحادثة الفلسفية من انحرافات واتهامات قوبلت بالنقد من رواد ما بعد الحادثة الذين حاولوا تجاوز التصورات الذاتية والعقلانية المنغلقة على نفسها والتي ساهمت في انهيار الانسان، يظهر من بينهم فيلسوف المهمش والمهمشين، ميشيل فوكو Michel foucault 1926-1984 رافضا شعار رفض التنوير والحادثة لأنها همشت الآخر المجنون ومارست عليه ممارسات شنيعة، ولم تنظر اليه كإنسان بل كمريض عقلي لا حقوق له، ويعيب فوكو على ممارسة الحضارة الغربية التعذيب والنفي على المجنون كما يدين بذلك الى لحظة انبثاق الفلسفة الديكارتية التي حطمت الفكر الإنساني بنفيها للمهمش، كذلك الممارسات السلطوية وما آلت اليه من مظاهر اكرامية حول الجنون نتيجة لأوهام وعي الذات، التي وقعت في الزيف من خلال مبدأ النفي الذي اعتمدته في الممارسات اللإنسانية، كما أن هذا العقل الزائف نفي المجنون بواسطة العقل، فهو اذن نفي بواسطة العقل ذلك الذي يدعي العقلانية، ويواصل فوكو حفره في مظاهر الاكراه التي شهدتها التاريخ الغربي موظفا منهجه الأركيولوجي والجينيولوجي للوصول الى حقيقة الشيء من خلال الاستنتاجات التي أدرجها في كتابه تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي 1961، اذ يتوصل الى أن الجنون ملازما للعقل لكي يستمر الانسان في هذه الحياة ليبرز جانبه الإبداعي من خلال انفتاح الذات على عوالم أخرى وعلى انفجار وانبثاق بلغة نيتشه، ومن هنا نطرح التساؤل

التالى: كيف حلل ميشيل فوكو مظاهر الاكراه التى مورست على المجنون؟ وماهى مبرراته فى ذلك؟ والى أى مدى اعتبر أن الجنون حياة وقوى بديلة؟

أما عن الفرضيات المناسبة لهذا البحث تتمثل فى: نقد ميشيل فوكو للحادثة التى استبعدت الآخر وهمشته ومارست عليه اقصاءات، عرض مظاهر الاكراه التى كانت تمارس على الشخص المجنون وتذمره من ذلك ثم عمل الدولة على التسلط على المجنون بادعائها انشاء مؤسسات للطب العقلى، ثم يمكن القول أن الجنون حسب فوكو هو رؤية جديدة للعالم وأداة لمحاربة الرتابة وكسر الروتين والابداع.

وتتمثل أهداف البحث فى:

- بيان استبعاد فلسفة الحادثة للآخر وتهميشه وبالتالى وقعت فى اللانسانية.
- رفض مظاهر الاقصاء والاستبعاد التى تمارس على الشخص السوي باعتباره انسانا قبل كل شيء
- رفض مظاهر التعذيب ونشر خطاب الكراهية حول الآخر وقبوله بطبيعته.
- العمل على استرجاع قيمة الشخص الضعيف المهذورة فى ظل الحادثة وانعكاساتها السلبية على الانسان المقهور.

- النظر بإيجاب للشخص المهمش والمجنون لأنه يتمتع بجانب آخر يجعله يبدع ويتقن فى أعماله.

أما عن المنهجية المستعملة فى هذا المقال فإننا استخدمنا مناهج فلسفية وأولها المنهج النقدي من خلال تقديم نقد للحادثة التى نسيت وهمشت الآخر وكذلك المنهج التحليلي من خلال تحليل وجهة نظر ميشيل فوكو فى الجنون، كما استخدمنا المنهج التاريخي المتمثل فى الوقوف على اهم المحطات التاريخية التى مر بها تاريخ الجنون عبر العصور.

2.جدلية الحادثة والعقلانية:

برزت فلسفة الحادثة نتيجة حركات فكرية تحررية شهدها العالم الغربى من قبيل الثورة على الكنيسة التى كانت ترفض كل تفكير خارج عن وصيتها وتلقي بصاحبه الى مشنقة الموت، فراح ضحية ذلك العديد من العلماء، الى غاية الانفراج من خلال الحركات الأدبية والعلمية والثورة الصناعية وغيرها. وتعرف الحادثة على انها "حركة تاريخية معينة نتجت عن مسار فكري بطيء هذا المسار قد أحدث انساقا جديدة من التصورات على الصعيد العلمي والابداعي، فترتب على ذلك انبثاق نمط جديد من المعقولة سيطر الى يومنا هذا على كىفيات التفكير والممارسة" (التركى، 1992، صفحة 15) فهى تغير شهده العالم على جميع الأصعدة وتميز بالرغبة فى التقدم عن طريق التطورات العلمية المختلفة التى ساعدت الانسان فى الرقي بذاته والاعلان عن دخول مرحلة جديدة من التطور.

وعموما ان بدايات الحداثة وأساسها عموما كامن في الاستناد الى العقل، من حيث هو القائم الأول للتحولات العميقة والقاطعة في كل الميادين وصارت عقلنة منفصلة عن الأيديولوجيا الدينية نهائيا، فصارت كل التعليمات تستند على مشروعية خارج الاطار الديني ومشاركة المجتمع أو فصيلة من فصائله (فتحي، 2010، صفحة 222، 221) وتميزت الحداثة بالتفكير المستقل والمنفصل عن التفكير الديني الذي كانت تسيره الكنيسة وتصدر أحكاما عامة للمجتمع بجميع أحواله وميادينه، كما تخلص الانسان من التفكير الخرافي الذي يستند الى مرجعيات ميتافيزيقية وأصبح كل شيء موكل الى العقل الذي يصدر أحكاما منطقية تخص الانسان ذاته دون غيره، لا شيء يعلو فوق صوت العقل، لا تصورات مفارقة ولا خرافات ولا حتى نظريات ومذاهب فاسدة.

كما قامت الحداثة على ركائز أساسية ميزتها عن سابقتها مثل مبدأ الذاتية الذي يمجّد الفرد ويمنحه السيادة المطلقة اذ أصبح سيدا على الطبيعة، ومبدأ الحرية الذي يمنح حرية الأفراد بعيدا عن كل انغلاق فكري أو اجتماعي وكذلك مبدأ العقلانية الذي يعد من أهم مبادئ الحداثة من خلال تجسيد العقل، وجعله هو السيد في اصدار الأحكام وتعزز مبدأ العقلانية مع الفلاسفة الحداثيون، بداية بأب الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت الذي اعتبر أن مصدر المعرفة هو العقل وأنه أعدل قسمة بين الناس وأننا جميعا متساوون في القدرات العقلية والاختلاف بين الناس " لا يعني أن البعض أكثر منطقية وعقلانية من الآخرين ولكن كامن في طريقتنا في قيادة الأشياء والنظر الى نفس الأشياء، اذ لا يكفي امتلاكنا عقل سليم وانما الذي يهم هو تطبيقه بشكل سليم" (rené, 2011, p. 6) أي أن الاختلاف كامن في طريقة استخدامنا العقل ولكن الجميع متساوون في القدرات العقلية وفي القدرة على التعلم، ومن المعلوم أن ديكارت أسس عقلانيته المعروفة بداية من رحلة الشك المنهجي الذي اعتمد عليه للوصول الى نموذج من اليقين، شك في كل شيء شكّا مطلقا غير أنه يشك، بداية بالحواس لأنها خادعة خدعتني مرة وستخدعني دوما واستند الى فكرة السراب الذي يخيّل له أنه قريب لكنه في الحقيقة بعيد، ثم شك في العقل من خلال الحلم الذي يبدو كحقيقة في حين أنه ضرب من الوهم ثم شك في ذاته واعتبر أن شيطاننا ماکرا يوسوس له أو نوع من الجنون يمنعه من التخلص من الشك وبالتالي يعيق عليه المعرفة الحقة، ثم عرج الى منحى آخر حين نزع الشك عن الذات وأثبت أن الذات المفكرة كجوهر عاقل لأنها تشك وتمارس عملية الشك المطلق وبالتالي موجودة ولايب في ذلك، ومن هنا أسس الكوجيتو المعروف أنا أفكر اذن أنا موجود، وبالتالي ربط عملية التفكير بالعقل وبالوجود فالإنسان الذي يفكر بمنطقية وسلامة بعيدا عن الأشياء التي تعيق التفكير العقلاني هو انسان سليم والذي لا يملك عقلا سليما فهو محروم من التفكير بنضوج ووضوح وبداهة. وتعززت العقلانية مع كائط حين نادى بضرورة استخدام العقل والخروج من القصور الذي كان يعيشه الانسان الى حالة التنوير، هكذا وعمل الفلاسفة العقلانيون على تشجيع التفكير

العقلاني والرقبي به في فلسفاتهم النسقية، خاصة مع هيغل وبالتالي بلغت الحداثة الذروة في الفلسفة الألمانية، اذ جمع هيغل مبادئ الحداثة في نسق فلسفي متكامل فعمم مبدأ الذاتية على الوجود الفلسفي بأكمله فجعله روحا مسيرة للعالم وذهب بمبدأ العقلانية الى حد تأليه العقل في مقابل فناء عالم الآلهة. (ياسر، 1996، صفحة 15)، "وانطلاقا من الذاتية الديكارتية وصولا الى ذاتية هيغل والتطابق بين الواقع والمعقول، شكل العقل والمعقولة مركز الاهتمام في فلسفة الأنوار وفلسفة التقدم، تجاوزا للديني والأسطوري والتقليدي، انه اثبات للعقل اذن واستبعاد لتجليات اللاعقل، وهكذا تقوم الحداثة على حركية اثبات المعقول واستبعاد اللامعقول" (عمر، 2017، صفحة 13)، وبالتالي ارتبطت الحداثة ارتباطا وثيقا بالعقلانية والاعلاء من شأن العقل الذي يميز الانسان ويرتقي به خاصة اذا أحسن استخدامه، لكن في نهاية المطاف وصل الانسان الغربي الى موضع من الأقول من خلال تقديسه العقلانية المفرطة، فوقع في الانغلاق على ذاته ولم يعد يشارك الآخر اهتماماته كما لم يعد يهتم به أصلا، وأفرط في تقديس العلم وأصبح ذو بعد واحد وبالتالي سار في طريق فقدان انسانيته، الأمر الذي دفع برواد ما بعد الحداثة الى غربة الممارسات الحداثيّة، تلك التي نسيت الآخر وأهملت الانسان وجعلته ضائعا، وبرزت محاولات عديدة في هذا الصدد أهمها محاولة فيلسوف الاختلاف ميشيل فوكو الذي رد الاعتبار الى الانسان المهمش.

3. بين العقل واللاعقل -ميشيل فوكو متجاوزا العقلانية الحديثة:

عمل جملة من الفلاسفة على نقد الأساس الذي تميزت به فلسفة الحداثة، لأنها وقعت في مزالق عديدة لعل أكثر ما يهمننا في هذا السياق هو تأليه العقل في مقابل نفي اللاعقل، أي الاهتمام بالتمركز ونفي المهمش وبالتالي حاول العديد من الفلاسفة ارجاع فكرة المهمش الى المركزية ودراستها في أطروحات فلسفية، لعل أبرزهم ميشيل فوكو الذي عمل على نقد عقلانية المجتمع الحدائي التقليدية وعمل على تطوير أنماط المعرفة الإنسانية التي غيبتها الفلسفات الحداثيّة، خاصة وأنها جعلت كل شيء تحت عمل ميكروفيزياء السلطة، التي تقمع وتهمش وتمنع وتعاقب بآلياتها الخاصة واللامرئية المتوغلة في أنحاء الجسد الاجتماعي بكافة تفاصيله، والتي تراقب كل شيء وتجعله تحت اطار عملياتها الانضباطية لكي يصبح كل شيء في خدمة السلطة.

حفر ميشيل فوكو في الخلفية التاريخية للحداثة ورأى أنها همشت الآخر وأن كل علومها هي علوم سلطوية، خاصة المعارف العقلية التي طمست الغير، وتبدأ هذه التراجيديا حينما قال ديكارت أنا أفكر وصمت، فكان لابد له من قول أنا أفكر في الآخر، بل ان الأمر أعق بكثير ليرتبط بمأساة أخرى حين تلفظ سقراط بقول اعرف نفسك بدلا من اهتم بنفسك، وبالتالي أعلن التفوق حول الذات بدلا من الاهتمام بها ومعرفة ما يميزها من أمور لاعقلانية، وكذلك في مسألة نفيها للآخر. خاصة نفي الجنون لأن ممارسات الحضارة الغربية حوله كانت مستبدة، فقد درسه كموضوع

في أطروحته المقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، وارتبط هذا الموضوع باسمه أكثر حين صدر كتابه الموسوم بتاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي الذي يبين تطور اركيولوجيا الجنون عبر العصور.

يبدأ ميشيل فوكو من خلال عملياته الحفرية في ظاهرة الجنون باعتبارها ظاهرة ثقافية، بنقد الحداثة بعلومها وممارساتها تجاه الآخر، فالحداثة حسب فوكو عبارة عن "نتاج أيديولوجي محض لاستراتيجية حضارية سياسية طبعت المشروع الثقافي الغربي، خاصة منذ عصر الأنوار وسيادة نموذج وحيد من العقلانية، كان من مهمته احتكار العقل واختلافه المضطرب" (ميشيل، 1990، صفحة 18، 19) فالحداثة الغربية مجدت العقل وفي المقابل أهملت اللاعقل الذي يمثل الوجه الآخر للعقل ورؤية أخرى للإنسان لأنه يميزه من خلال الاختلاف الذي يميز الجنون من فرادة وديناميكية جديدة للحياة، خلافا للنمطية العقلانية التي تركز للتمهيش ولاستبداد الغير عقلاء، خاصة مع انبثاق الفلسفة الديكارتية التي عملت على تحطيم الجنون واقضاء المجانين لأنهم عاجزين عن التفكير بحرية.

اذ أن الإشكالية الديكارتية تؤكد على أن العقل تحكمها في الذات وسيطرة عليها والجنون عكس ذلك هو خارج عن نطاق سيطرة الذات وبالتالي فالعقل لا يمكن ان يتحمل الجنون، وبالتالي تكون العلاقة بينهما هي علاقة استبعاد، بحيث يستبعد كل منهما الآخر، ويختار العقل في مقابل اللاعقل أي الاهتمام بالإرادة الخيرة ضد الإرادة الحمقاء، كما أن الجنون لا مكان له بين الناس الأحرار. (عمر، 2017، صفحة 66)

ويضيف فوكو أن "ديكارت يصنف الجنون ضمن رحلة الشك عنده، الى جانب الحلم وكل أشكال الخطأ" (ميشيل، 1972، صفحة 67)

ان الجنون من بين كل الأوهام، يرسم مسالك للشك، يضيف ديكارت أننا لسنا متأكدين دائما أننا لا نحلم، وللسنا متأكدين بالقطع أننا لسنا مجانين، وبالتالي هناك تناقضات في أحكامنا، ثم يقصي ديكارت الجنون باسم ذلك الذي يشك ولا يستطيع أن يخرج عن العقل وألا يفكر وأن يكون منعدم الوجود (ميشيل، 1972، صفحة 69) فديكارت اذن عمل على ادراج الشك والجنون كعوامل سلبية تعيق الفكر السليم للوصول الى الحقيقة كما تغطي الاستتارة التي يتمتع بها العقل في مختلف عملياته الفكرية، وهذا ما أدرجه في التأمل الأول في كتاب تأملات في الفلسفة الأولى، اذ صنف كل ما يعيق التفكير السوي خاصة ماتحملة الحواس من أخطاء إضافة الى هذيان الحلم والجنون الذي يهدد العقل أكثر مما يعيق التفكير الصحيح باعتباره لا عقلا يحطم السيادة العقلية، فاعتبره ديكارت أخطر العوامل السلبية المهددة للمعرفة اليقينية وأكثرها تهديدا للإنسان العاقل.

يعترض ميشيل فوكو بشدة على رؤية ديكرت وحكمه الجائر على الجنون في ما يخص اعتباره كعائق نحو الوصول الى المعرفة كالكشك مثلاً، فلا علاقة له بضعف الادراكات الحسية ولا الخطأ الذي تقع فيه كما أنه لا يدل على تعطل كل الادراكات الحسية لدى الانسان، بل يذهب الى حد القول أن الحلم أخطر بكثير من الجنون، بحيث أنه ضرب من الوهم والخرافة الذهنية فالحالم لا يمكنه ادراك الحقيقة بتاتا ولا يمكن أن يصبح خطأ أصلاً، بل أكثر بكثير من ذلك وبالتالي يمكن نفيه، (علي، د.ت، صفحة 182) فالحلم أخطر بكثير في عملية المعرفة فلا يمكن الاعتماد عليه، لأنه وعي زائف ومؤقت، عكس الجنون الذي ينتج المعارف من خلال الادراكات الحسية المبدعة، ويضرب لنا مثلاً يجسد قدرة الجنون على عملية الادراك الحسي خاصة في المواهب التي جسدها شيكسبير ونييتشه وفان غوغ وغيرهم والتي اتسمت بطابع جنوني له كسر الرؤية المتعجرفة للذات الديكارتية التي همشت الآخر، وبالتالي فان "المجنون هو الآخر في علاقته بالآخرين، الآخر-بمعنى الاستثناء- ضمن الآخرين بالمعنى الكوني" (ميشيل، 1972، صفحة 203) فالعقلانية الحداثية المنغلقة على ذاتها نسيت الآخر المختلف ولم تعطه حقه في العيش كإنسان مميز يخالف العقل، فهو إنسان له مكانة اجتماعية مع الآخرين ولا يمكن تصور أنه يخالفهم أو يصنف كغريب عنهم، الأمر الذي أكدته مظاهر النفي التي عانى منها المجنون طيلة قرون من الزمن، من معاناة في صمت، نتيجة وضعية سببها اهمال الآخر وعدم الاكتراث لفلسفة الغيرية الأمر الذي ولد استبداداً وأزمة زعزعت أركان الواقع الغربي الحديث، وكرست لممارسات واقعية على شاكلة محرقة هتلر تجاه الآخر.

4. الجنون ورد الاعتبار للآخر:

اهتم فوكو بموضوع الجنون خلافاً لفلسفة الحداثة التي أقصته باسم العقل، اذ وقعت في انزلاقات عديدة بسبب معاملاتها القاهرة ضد المختلف، اذ وصفها ميشيل فوكو بحداثة لا إنسانية لأنها عملت على توليد خطاب الكراهية في مقابل خطاب الحب ونفي القلة المهمشة على حساب أخرى تتمتع بالنفوذ والقوة، الأمر الذي يرجعه فوكو الى سبب اقتصادي تمارسه الدولة الحديثة، كما سنرى لاحقاً، لكن قبل ذلك سنتعرض لرؤية فوكو للعقلانية التي طمست الجنون.

4.1 مفارقات بين العقل والجنون في النص الفوكوي:

عمد فوكو الى دراسة الآخر الذي نال حيزاً من تاريخ التهميش الطويل، فينتقل من الموضوع المدروس الى فضاء يصبح فيه ذات فهو لم يعد ليقبل أن يكون موضوعاً، فالذات تستخدم الآخر لوصف نفسها أنها ليست هي، فينحط الكائن الآخر من شخص وذات الى مجرد صورة تستخدمها الذات لتعاون نفسها وتميز هويتها في حين يتماهى الآخر في اللاشيء. (عمر، 2017، صفحة 34) فالذات الحديثة لم تنظر الى الآخر باعتباره ذات أخرى تكملها

من خلال وجود فعل الاختلاف بين الذات وفعل التكامل الذي يميز العلاقات الإنسانية إضافة الى التواصل بين الذات لتأسيس التداوت الذي شهد دراسات فيما بعد، بل نظرت الى الآخر مجرد مرآة تنعكس فيها صورتها هي فقط لكي تتعرف على نفسها وتتأكد من وجودها ، متناسية بذلك ماهية الآخر الذي يعتبر انسانا يحتاج شيئا من الاعتراف والتواصل ونسيان الانغلاق الذاتي الذي ميز الذات الحديثة التي عملت على تمزيق هوية الآخر وتهميشه وكسر روابط الشخصية ونسيان العوامل التي تساعد في الرقي بالإنسانية، لأن اتحاد الأنا والآخر يشكل نوعا خاصا من المعارف التي تمكن من نشر القوة، والنهوض بالمجتمع وتشخيص الحاضر على أحسن ما يكون، وبالتالي تختفي مظاهر الاكراه والعنف داخل الحقول الاجتماعية، وتتغزز معرفة الآخر خاصة من خلال الاعتراف به مهما كانت صفته الجسدية أو العقلية، يكفيه أنه مختلف وأكثر من ذلك أنه انسانا له هوية وإرادة حرة، وله صفة التعبير عن ذاته.

يؤكد ميشيل فوكو موقفه حول نسيان الآخر من قبل العقلانية الحديثة، خاصة الآخر المختلف باعتباره ذات إنسانية قبل كل شيء، ثم أليست فلسفة الحداثة فلسفة مقاومة مع تيار النزعة الذاتية؟ فلما تهتمش ذواتا وترغب في احتضان أخرى؟ أليست مفارقة في حق العقلانية. وفقا لهذه المحاكمة يؤكد فوكو أن العقلانية الغربية أعمتها مصالحها ولم تدعها ترى الآخر، وتمركزت حول العمل على النهوض بمجتمعاتها اقتصاديا، ويرى فوكو أن الآخر الذي أهملته الحداثة، "هو المعادل الفعلي للجنون، ذلك أن الجنون هو الآخر المبالغ في آخريته، ففوكو يصف كيف أن مختلف مراحل الحضارة الغربية قد تصورت علاقتها بهذه الغريبة: فقد كان الآخر موجودا غريبا أو أجنبيا، بربريا أو أعجميا، داخل نعوت ذات طابع لا متسامح" (عمر، 2017، صفحة 36) فالحداثة حين رفضت الآخر بدعوى أنه آخر لا يهمني، فقد أعلنت حينها رفض الجنون لأن هذا الأخير هو آخر مفرط في آخريته لأن الاختلاف مبدأ كامن في الجنون بكل مطلقة، لأن الشخص المجنون لا يشبه أي شخص عادي فهو انسان له قدرات أخرى وإرادة حرة مفارقة للإرادة العادية، ناهيك عن رفض العالم الغربي لكل كل أعجمي وكل مختلف عن تلك الحضارة.

ويعتبر الجنون عند فوكو من أهم الموضوعات المرتبطة بخفايا أعمال المجتمع الغربي في اقضاء الشخص المجنون، والذي مر بمراحل متعددة بحيث كان ينظر الى الأحمق نظرة دونية واقصائية، فكان المجنون شخصا بلا حقوق وكان يتعرض الى أنواع عديدة من التعذيب والطرده، اذ كان البحارة يأخذون المجانين ويلقون بهم في البحر، ويطرد البقية من المدينة، وكان الحمقى يعيشون حياة التيه والطرده ليلتحقوا بالبراري حيث يتيهون على وجوههم، هذا في الحالة التي لايشحنون فيها مع البضائع والسلع إضافة الى الأحداث التي شهدتها العالم حيث تم في نورينبورغ في النصف الأول من القرن الخامس عشر احصاء 62 مجنونا، 31 منهم تم طردهم من المدينة، وفي النصف

الثاني من هذا القرن، تم تسجيل 21 حالة رحيل قسري" (ميشيل، 1972، صفحة 29) الأمر الذي يؤكد الأفعال الشاقة والانتهاكات التي تسند الى المجنون، ناهيك عن جرائم القتل العمدي والاعتداءات التي يتلقاها، إضافة الى النظرة المنبوذة التي ينظر اليه بها كأنهم وحوش أو ما شابه ذلك.

فعندما احتجز العصر الكلاسيكي كل أولئك الذين يعانون الشذوذ الجنسي والأمراض التناسلية، ويقومون بالفجور والاسراف والجنون وغيرها. (michel, 1972, p. 106) تفاقمت النظرة الدونية للتعذيب مع المشهد المأساوي الذي شهدته سفينة حاملة لهؤلاء، وراح ضحية ذلك أشخاص أبرياء لا تهمة لهم سوى أنهم مجانين وحمقى، فسميت بسفينة الحمقى لأنها حملت على ظهرها العديد من أصناف الأشخاص بأمر من الملك لويس الرابع عشر حين انتشر مرض الجذام خوفا من انتشاره في الوسط الاجتماعي، وحملت السفينة عدة أشخاص لا ترغب فيهم الدولة وهم مرضى الجذام و المنبوذين والعاجزين والمعوزين والمعاقين والعاطلين، والحمقى والمجانين وكل من يشكل عطالة على المجتمع ، حيث قامت السفينة بالإبحار بعيدا في عرض البحر لنفيهم لأنهم عبئ على البلاد، ثم " اختفى الجذام وتوارى المصاب به أو كاد من الذاكرة، الا أن بنياته ستستمر فستشهد الأماكن ذاتها نفس لعبة الاقصاء قرنين أو ثلاثة بعد ذلك، فقد حل الفقراء والمشردون والخاضعون للإصلاح والمرضى عقليا محل المصاب بالجذام" (ميشيل، 1972، صفحة 26) ويضيف أن هذه الامتدادات ستنتهي الى امتدادات لإنسانية من القرن الرابع عشر الى غاية القرن السابع عشر لأن الاستبعاد سيظل منتشرا (michel, 1972, p. 13). فقد بقيت الرؤية المستبعدة للمجنون منتشرة في أوروبا من خلال أشكال القهر والاستبعاد الى أن تطور الطب في القرن السابع عشر، وأنشأت المستشفيات والمصحات وأصبح المجنون شخصا مريض أنشأت له دور عناية وبالتالي بين العقل الغربي استبعاد تلك الممارسات التعسفية على الشخص الأحق، وصار المرض يدخل في حيز الممارسات الطبية لا التعسفية حسبهم، لكن في الحقيقة هي أيضا تعسف بوجه آخر أو تسلط على عقل وجسد المريض، لأنه ببساطة لا يخدم دولة الحديثة التي هي بحاجة الى فعل القوة وتجسيدها في أرض الواقع عبر أفراد أقوياء ويد عاملة تدفع بالاقتصاد نحو الأمام، لكن في نظرهم الجنون أكبر عائق للعمل مثلما نظر ديكارت اليه كعطالة للعقل، اذن فان مولد المصحة العقلية كان لحاجة شديدة من الدولة بدعوى الحفاظ على سياستها.

يرى ميشيل فوكو أن المصحات التي أصبحت تحوي المجنون لم يكن لها معنى طبي فقط، انها تشبه في ذلك تلك المستشفيات التي تحوي مرضى الجذام، فهي اقصاء بمعنى جديد كشف عن وجود فضاءات مستبعدة، فاعتقال المجانين والزج بهم بين جدران المصحة له دلالات سياسية، واجتماعية ودينية، واقتصادية وأخلاقية، تخدم البنيات الأساسية للعالم الكلاسيكي على حد تعبيره. (ميشيل، 1972، صفحة 75) اذن يبين فوكو كيف نشأت المصحات

التي تهتم بالمجنون والتي أسمت نفسها مصحات عقلية تعالج المريض العقلي، فأعطت للعقل حريته وكبلت اللاعقل داخل مؤسسة سلطوية غرضها خدمة مصالحها وعزل كل من يفسد برنامجها السلطوي، فلا تستعمل وسائل الاقصاء والتعنيف بل تنشأ مؤسسات للسلطة الانضباطية غرضها المراقبة عبر وسائل حديث تمكنها من معرفة كل صغيرة وكبيرة عن الافراد وبالتالي تنشر سلطتها في كل مكان دون الحاجة لحجز والقاء في بحر. "فبدءا من العصر الكلاسيكي نظر الى الجنون، وربما لأول مرة من خلال ادانته العقلانية للعطالة، وضمن محايثة اجتماعية رهيبة وفره عالم العمل، فقد كان هذا العالم سلطة أخلاقية للفصل تبيح له رفض كل الأشكال الاجتماعية غير النافعة." (ميشيل، 1972، صفحة 96) اذ صار هاجس العمل في المجتمعات الحديثة أولوية تفرضها الحاجة الاجتماعية فكان يحجز المجانين، لأنهم عاجزون عن العمل وكسب قوت يومهم وتغطية حاجياتهم الاجتماعية، فيصيرون عبئا على الدولة، التي لا تستطيع التكفل بهم في كثير من الأحيان، كما أنهم في هذه الحالة لا يخدمون الدولة التي تريد الزيادة في انتاجها وانهاش اقتصادها، خاصة لما شهدته أوروبا من وضع متدهور في الجانب الاقتصادي فكانت ملزمة بالتقدم، اذن تعلق الامر بسوق العمل، واقترن الوضع بالعامل الاقتصادي بحيث فقدت الدولة قيمتها ومصداقيتها خاصة حين يتراجع الانتاج و تنفاقم معدلات البطالة والمجاعة داخل كيان ما، وبالتالي تصير الدولة ضعيفة، فأصبحت الحاجة في انشاء مصحات العزلة ضرورية للتخلص من كل ما يعيق عمل الدولة التي تبجل العمل على الإنسانية، لهذا وصف فوكو المجتمعات الحديثة بأنها مجتمعات لا إنسانية بمختلف مجلاتها.

ان انشاء المستشفى العقلي حسب ميشيل فوكو كان من بين الحلول التي اتخذتها الدولة الحديثة من أجل الرقي بكيانها، ولم ينشأ حبا في احتواء الشخص المجنون، كما أنه لا علاقة بفعل التطبيب "لا من حيث اشتغاله ولا من حيث خطابه" (ميشيل، 1972، صفحة 72) لأن الممارسات داخل المشفى هي ممارسات قهرية ولا إنسانية، بدعوى أنها علاجات نفسية اتخذت من علم النفس موضوعا لخطاباتها، في حين أن هذا العلم حسب فوكو هو علم لا انساني، قائم على خرافات حدثية عملت على سجن الجنون في اطار الطب العقلي ومارست عليه علاجات متسلطة، وولد دخل هذه العلاجات التي اعتبرت مجرد نزوة طب عقلي قائم على الملاحظة وبالتالي أعلن عن ميلاد حجز استشفائي يعينه الحوار القائم بين المجنون والطبيب. (ميشيل، 1972، صفحة 325) اذ أن الطريقة التي تستعملها تلك المؤسسات الاستشفائية هي طريقة تمثل نوعا من الغضب واجبار المجنون بالتلفظ بخطابات لا شأن له بها، ولا تعنيه ، كما يتم غصبه على القيام بعلاجات غريبة فان قام بردة فعل ما فسيصنف مريض عقلي بالدرجة الأولى، ليكون ضحية أدوية العلاج النفسي وحبوب لتهدئة الحالات العصبية، ويرى أن الطبيب يمارس

سلطته على المجنون كيف ما يشاء هو، ويصف له العلاج الذي يريده هو من خلال الحديث الذي بينه وبين المريض، بحيث يمارس سلطته بكل حرية، يقول ميشيل فوكو في هذا الصدد، " الطبيب سلطة تنتشر المعرفة الطبية" (ميشيل، 1987، صفحة 51) فالطبيب في ميدان الطب العقلي عمل دور رجل الدين المالك للحقيقة المطلقة، فهو المسؤول عن المريض والمتحكم بزمام أمره، وهو الذي يصدر أحكاما مسبقة، ليس هدفها هو اشفاء المجنون وإنما خدمة مصالح الدولة التي تعمل دوما على زج المجانين في المصحة البنية العامة للسجن البانوبتيكي المراقب.

في ذات السياق يمكن أن نستنتج أن رؤية ميشيل فوكو لميلاد الطب العقلي في تاريخ الجنون، تشبه الى حد ما ولادة الطب السريري في كتابه مولد العيادة، إذ يرى أن الطب الحديث هو نتاج لعلاقات سلطة فرضت قيامه داخل المستشفيات وسريريات المرضى، ويرى فوكو أن ذلك كان ذريعة من قبل الدولة لتفرض سلطتها على المجتمع والتحكم في تظاهراته، وبسط نفوذها على الجسد لتجعله لعبة بين أيديها، حيث أن، "البنى المادية الجسدية والبنى الفكرية المعنوية التي تسمح بتحليل الجسد مزجت بالمصالح السلطوية، فبدخله حقل المعرفة، دخل الجسد البشري أيضا حقل السلطة وصار بالتالي هدفا محتملا للاستغلال والتلاعب." (فوكو، 2018، صفحة 7) أي التلاعب من طرف السلطات لأغراض خفية أو بما بات يعرف بالفعل السياسي الذي يدخل الجسد فيه ضمن نطاق تحديث الدولة وسياساتها.

2.4 الجنون كنظرة معانقة للحياة-نظرة فوكوية:-

يشير ميشيل فوكو بعد انتقاداته للحدائثة التي أهملت الآخر، وبعد لومه للطب العقلي الذي يستغل الشخص المعنوه لعرض سلطوي الى التركيز في مسألة الجنون باعتباره رؤية جديدة للحياة، ويرفض اعتباره مرض عقلي لأن الاختلاف عن اللاعقل يعد مرضا في نظر كل مؤيد للحدائثة، عكس فوكو الذي سار على درب فيلسوف القوة فريدريك نيتشه الذي يهتم بمعنى الجنون وجمالياته في هذه الحياة، التي تحتاج الى إرادة قوة لمواصلة المسير إضافة الى وجود شيء من الجنون يخلق أنماطا مختلفة من العيش المتفرد والمختلف.

يعرف ميشيل فوكو الجنون بقوله: "الجنون هو الحضور المسبق للموت" (ميشيل، 1972، صفحة 37) فهو حالة مختلفة مثل الموت، لأن هذا الأخير هو حياة أخرى كذلك الجنون هو عبارة عن حياة تختلف عن العقلانية النمطية، وإنما هي ابداع تحتاجه الإنسانية المهمشة لأجل إيجاد متنفس تروح به عن ذاتها وهويتها التي طمسها الحدائثة. يضيف فوكو أن الجنون يجذب ويتحكم في كل ما هو سهل ومريح وخفيف في العالم ويسبب الفرح ويدفع الناس الى اللعب واللهو، جاعلا كل شيء لامعا محطما الألغاز المخفية. (ميشيل، 1972، صفحة 45) إضافة

الى أن الجنون " ليس هو الغرابة المألوفة في العالم انه فقط فرجة معروفة عند متفرج غريب، انه ليس وجهها من وجوه الكوسموس بل سمة من سمات الزمن اللامتتاهي" (ميشيل، 1972، صفحة 47) فالكثير ينظر الى المجنون بنظرة دونية، يعتبرونه أنه شخصا غريب الأطوار، معتوه، لا يملك الصفات التي تمكنه من الرقي الى مناهج الانسان العاقل الذي يفكر بكل عقلانية، بل هو هالة في الوجود، وشيء خارق للعادة، ويتيح الجنون للإنسان معرفة نفسه ومعرفة طرق الابداع التي يمكن انتهاجها، وكذلك معرفة اهم مواطن المواهب التي تمكن الفرد من هز العالم مثلما فعل ذلك العديد من الأدباء والفلاسفة كنييتشه و شخصية هاملت وغيرهم..

كما أن "عقل الانسان في نهائيته لا يشكل فعلا شرارة للنور العظيم بل هو جزئية من ظلام، فأمام ذكائه المحدود لا تتفتح الحقيقة الجزئية والعرضية للظاهر. ولا يكشف جنونه سوى عن الوجه الآخر للأشياء، وعن جوانبها المظلمة وعن التناقض المباشر لحقيقتها" (ميشيل، 1972، صفحة 52) ولأن العقل الإنساني غير كامل وذكاؤه محدود ولا يكثر فيه جانب كبير مخلق للإبداع فهو يحتاج الى الجنون لكي يبرز جمالية الأشياء التي تفقد في ميزان العقل والتي تتوضح من خلال الغرابة والاختلاف، كما أن العقلانية تسبب نوعا من الرتابة لذلك يعمل الجنون على كسرها وخلق فن جديد لربما يعبر به عن روح العصر.

من خلال تأكيده على أن الجنون شكل من أشكال الحياة، يؤكد على أن البشر بحاجة اليه في تعاملاتهم اليومية من أجل الاستمرار، ف"نحن في حاجة الى جنون الحب للحفاظ على النوع ونحن في حاجة الى هذيان الطموح لضمان سير جيد للنظام السياسي ونحن في حاجة الى جشع لامعقول من أجل انتاج الثروات، كأن الحياة لا تعاش الا إذا كانت جنونا." (ميشيل، 1972، صفحة 16) فالجنون يدفع دوما نحو التقدم والسير نحو تجسيد وقائع لا بد منها من أجل الاستمرار. لهذا فيؤكد ميشيل فوكو على صلة العقل بالجنون اذ يقول "ان الجنون لا يمتلك معنى وقيمة الا داخل حقل العقل" (ميشيل، 1972، صفحة 54) فهما ثنائية تكمل بعضهما، لأن حاجة العقل الى الجنون حاجة ماسة تعطي للحياة شكلا إيجابيا من أجل التأقلم والاستمرار، كما أن الذات تبت أناها بفعل الجنون الذي يجعلها مختلفة لأنه يبرز لها أعادا جمالية جديدة.

5. خاتمة:

بعد عرض رؤية فوكو حول العقلانية التي نفت الجنون، في الختام يمكن أن نستنتج أن ميشيل فوكو قدم محاولة في سبيل استرجاع حق المهمش الذي نسيته العقلانية الحديثة وهو الآخر المجنون، الذي عملت على تدنيه و معاقبته ورميه في البحار وفي الحقول بدعوى أنه لا يتوافق مع السير السليم للقواعد العقلية، اذ فقد المجنون في العصر الكلاسيكي حقوقه لعل أكثرها الحق في العيش، خاصة حين تعلق الأمر بتراجع الاقتصاد من خلال الأزمة

التي عاشتها أوروبا، فكان لزاما عليها أن توفر اليد العاملة من أجل الإنتاج، وبالتالي زاد نفى الشخص المجنون، الى أن مارست الدولة سلطتها وأعلنت عن ولادة الطب العقلي في القرن التاسع عشر لأسباب سلطوية مرتبطة بالاقتصاد ومراقبة الأفراد وتوسيع شبكية الانضباط في كافة المجالات، فقد أصبحت المصحة تستند في أحكامها الى ما تمليه عليها نتائج علم النفس المؤسس وفق سلطة الحداثة والتي لا تفيدنا تحليلاته بأي فائدة للجنون، فالطبيب صار سلطة تتحكم في الحياة والموت، كذلك في الجنون والعقل وترسم خطأ يفصلهما، ليخلص في النهاية الى أن الجنون يكمل عمل العقل، ليخلق لنا جانبا جماليا ابداعيا، يكمن في اجتماع المتناقضات، وبالتالي حطم فوكو القيود التي صنعتها الحداثة خاصة حين ألغت الآخر، واستعاد فكرة الاعتراف به، لأنه مختلف ومتفرد، فالاختلاف وجه آخر للحياة تعبر فيه الذات عن كينونتها بكل حرية، وتجد فيه مساحة كافية لإبراز قدراتها التي طمسها فلسفات الوعي.

6. قائمة المراجع:

1. descartes rené .(2011) .discours de la méthode .france : les echocs du maquis.
2. foucault michel .(1972) .histoire de la folie a l age classique .france: gallimard.
3. الكردي محمد علي. (د.ت). نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
4. بن بوجليدة عمر. (2017). الحداثة واستبعاد الآخر. تونس، سوتيميديا للنشر والتوزيع.
5. عبد الوهاب المسيري والتريكي فتحي. (2010). الحداثة وما بعد الحداثة. دمشق، دار الفكر.
6. فتحي الريكي، رشيدة التريكي. (1992). فلسفة الحداثة. بيروت، مركز الانماء القومي.
7. فوكو ميشيل. (1972). تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي. المغرب، المركز الثقافي الغربي.
8. فوكو ميشيل. (1987). حفريات المعرفة. لبنان والمغرب، المركز الثقافي العربي.
9. فوكو ميشيل. (1990). الكلمات والأشياء. لبنان، مركز الانماء القومي.
10. محمد الشيخ، الطائري ياسر. (1996). الحداثة وما بعد الحداثة. بيروت، دار الطليعة.
11. فوكو ميشيل. (2018). ولادة الطب السريري. قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.